اثر الادب العربي

— في شعر شوقي —

« كلمة الاستاذ احمد الاسكندري »

لم تكن مصر وهي ولاية عربية بيئة خصبة لاخراج نوابغ الشعراء اذ لم تكن حينئذ دار ملك عظيم ولا موطناً جامعاً للفصحاء المتنافسين في الشعر .

ولما صارت دار ملك عتيد للفاطميين كانت زعامة الشعر والأدب ضاربة بجرانها ببغداد وعواصم الجزيرة الفراتية والشامات فنبتت بمصر نابتة أشبهت الفحول ولم تكنهم وانطبعت صناعتها بطابع مصري صبغته الرقة اللفظية والمحسنات البديعية والنكتة المصرية لا جزالة اللفظ ولا فخامة المعاني . وجرّت هذه الصناعة ذيولها على من بعدهم من شعراء مصر والشام زمان دولة بني ايوب ودولتي المماليك . فاذا كان هذا شأن الشعر في مصر المستقلة صاحبة الولاية على الشرق العربي فما ظننا به وهي ولاية عثمانية تتعاورها الأوبئة وتتلقفها الفتن والهزاهز ، لا جرم ان يكون الشعر بفحالته الاولى وطرافته الثانية رقد رقدة لم يوقظه منها الا عصر اسماعيل العظيم الذي جنى فيه الادباء ثمرة غراس جده الكبير . فكر به البارودي كرة استرجع بها رونقه في القرن الخامس الهجري ، واقتدى به بعد نفيه طائفة طاولت فحول الأوائل وأنجبت شاعرنا بالامس وفقيدنا اليوم بامور لم تجتمع لهم جميعاً من توقد قريحة وشرف تنشئة ونبالة تثقيف وإحاطة بعلوم واتقان للغات وسعة اطلاع وخدمة ملوك ومداخلة ساسة وبلهنية عيش وتنوع تمتع وكثرة اسفار وطول فراغ وفسحة أجل .

وكأني بقائل يقول : كثر ماتاحت لسواه هذه الامور فلم تأت منذ قرون بنابغة مشهور قلنا أجل هي صمصامة عمرو فأين يمينه .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

« أثر الشعر القديم في شعره »

ما كان شوقي بدعاً من الشعراء ولا خرج بشعره ثائراً على القدماء وانما تأدب بادبهم وسار على دربهم وما زال شعره كشعرهم تتألف القصيدة منه من أبيات مستقلة في اللفظ والمعنى على وزن واحد وتتركب من أخيلة جزئية لا من خيال كلي مفصل الاجزاء شأن الشعر القصصي الاوربي ، اتبع شوقي هذه الطريقة العربية حتى في المقطعات الكبيرة من مسرحياته .

والذي حدا به الى ان يكون عظيماً في الشعر العربي اطلاعه على شعر البارودي البليغ وسماعه إعجاب الناس به فأقبل على درس كتب الأدب ودواوين الشعراء وابتدأ كما قال عن نفسه — بديوان البهاء زهير فكان موفقاً جد موفق لانطباع شعر هذا الشاعر بالطابع المصري ولسهولته الممتنعة على غيره في الغزل ، وجره شعر زهير الى درس شعر أهل حلبته من أمثال ابن مطروح وابن النبيه والحاجري والتلعفري فنحا منحاهم وبزهم جميعاً قبل ان يتم العقد الثالث من عمره .

وبالطبع لم يقف بشعره عند هذا الحد فهبّ ينازع فحول الدولة العباسية صولجان سلطانهم من أمثال ابي نواس والبحتري وابي تمام والمتنبي والمعري والشريف الرضي وأمثالهم فأعجبه من ابي نواس خمرياته وغزلياته السائغة وحاكاها فقارب .

وراقه من البحتري حسن ديباجته وأوصافه وتشبيهاته حتى ليظن ان اكثر مانراه لشوقي في وصف القصور والهياكل ومواكب الملوك مستمد منه أومحاكي به طريقته . ولولا انه سلك في الحكمة وإرسال المثل مسلك ابي تمام والمتنبي لكان خريج البحتري وحده .

وأورثه سلوكه مسلك ابي تمام وابي الطيب أن يتخلق بخلقهما : من الاعتداد بالنفس وقلة الاكتراث بمتعارف المتأدبين والنقاد عندما ينظم . فكان اذا جاش خاطره وحمي مرجله بمعنى صبه في اي قالب يتسع له في نظره وان ضاق عنه في نظر غيره إما لضعف قريحة وإما لخفاء كناية واما لتشابه في مراجع الضمائر فيغمض ويعسر فهمه على غير الخبراء بشعر شوقي فيختصم فيه أنصاره ونقاده في الصحف والمجلات ولا يدفع صاحبنا عن نفسه باكثر من ان يتمثل بقول أستاذه ابي الطيب في وصف أبياته :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

أنام ملء جفوني عن شواردها ويسهر الخلق جراها ويختصم

ومع انه يحطب في حبل المتنبي ويتعصب له لم يستطع ان يحكم التشبه به في عامة مذهبه من وضع المعنى الكثير في اللفظ القليل فجاء أقرب شبهاً بابي تمام منه بابي الطيب ·

واكبر ظني ان شوقياً لم يتثقف كثيراً بشعر المعري واكتفى ان يثاقفه في نقد العادات المعيبة والآراء الافينة وان كان المعري قد طرق في شعره أبواباً لم يطرقها عربي في فلسفة الحياة والاجتماع ومعاملة الحيوان ونقد نظم الحكم والسياسة والاشتراع والتدين فصدف شوقي عن طريقة المعري في ذلك كما رغب عن تكلفه في قوافي لزومياته اذ ليس من سجايا صاحبنا التعمق في الفلسفة ولا التكلف الى هذا الحد ونعم انه تمرس مرة بلزوم ما لا يلزم في موشحة أندلسية فدرج في بعض أقسمتها بروي مزدوج الحروف وما اطاقه في بقية الأدوار والأقسمة ونعما فعل ·

والحق ان المباراة التي عقدها بين نفسه والفحول من الشعراء الآنفي الذكر قد انجلت عن ان السابق في الزمن ما زال سابقاً في الشعر وان ارتاض جوادنا المصري بمجاراتهم أيما ارتياض ·

أما الشريف الرضي وأنداده في الشعر من أمثال مهيار الديلمي البغدادي وابن هانئ وابن زيدون وابن خفاجة وابن حمديس من الاندلسيين والمغاربة فهم من نساميهم بشاعرنا فقد درس دواوينهم وعارض أشهر قصائدهم فكان يصرعهم مرة ويساجلهم أخرى ويتخلف عنهم تارة فهم ان فضلوه بسبقهم الى الشعر وتعبيدهم طريقه راجحهم بفضل ثقافته الجديدة وشهوده تلك الحضارة الباهرة فأتى بما لم يأتوا به واكمل بجديده قديمهم فقاسمهم ملكهم ونرجو ان لا يكون خاتمهم ·

« سلوك شوقي في مسلك المتقدمين في أغراضه »

قال شوقي الشعر في كل الاغراض عدا المجون والتزهيد في الدنيا والهجاء ·

فأما المجون والتزهيد في الدنيا — فان روح العصر واستكانة الشرق يصدان عنهما ·

واما الهجاء فلم تطب نفس شوقي السمحة ان تورد شعره في هذا المورد البشع ·

وقال الشعر في بقية أغراض القدماء وجمع بين براعة المتقدمين وبزاعة المعاصرين

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وبداعة المصريين فكان غزله يسيل رقة ويتنزه عن الإفحاش تنزهاً وكان مدحه لا يمل وان لم يعدُ فيه مألوف العرب، لبث فينا عمراً من قبل الحرب العظمى يمدح ممدوحاً واحداً في مواسم مكررة فلم ترذل له قصيدة وأماديحه في الاسلام ورسول الاسلام وخلفاء الاسلام وأبطال الاسلام غرة في جبين الايام ورفلة منه الى مقيل عثرات الكرام وغافر الآثام .

اما الوصف فهو جل بضاعته ومظهر براعته ولا تخلو منه قصيدة من شعره ، وأروعه ما أخرجه مخرج العظة والاعتبار كسينيته في آثار الاندلس التي عارض بها البحتري ووقفته على قبر نابليون وندبه معبد اسوان ووصفه ابا الهول .

وأضاف شوقي الى الثروة التي خلفها القدماء في أغراض الشعر وأبوابه أبواباً لم يحلموا بها : أوجدتها الحضارة الحديثة ونظم الاجتماع والسياسة مثل : وصف سفينة البخار والغواصات والكهرباء والطيارات والطيارين والقطار البخاري والهلال الأحمر والصليب الأحمر والمراقص وابي الهول وانتحار الطلبة والأحزاب السياسية ودار الندوة العصرية المسماة بالاعجمية (البرلمان) وديانة المصريين وعبادتهم وكنوزهم وعظمة النيل واعتقاد القدماء فيه والبحر الابيض المتوسط والبريد وطابعه وجسر البسفور وصبيان المكتب وحرية المرأة . ولا نعرف شاعراً مسلماً تحفى بديانة قدماء المصريين وتمجد بافعالهم مثله .

« معانيه »

تنسب عظمة شوقي الى إجادة المعنى اكثر من نسبتها الى اجادة اللفظ وانما تكثر معاني الشاعر وتعظم وتجود اذا اجتمع له امران :

اولها — سعة اطلاعه والمامه بكثير من العلوم والفنون وخصائص الديانات وتاريخ الشعوب وخرافاتهم وابطالهم .

وثانيها — توقد قريحته وصدق نزعاته التي تدفعه اليها غرائزه الفطرية .

فالامر الاول يكون في نفس الشاعر صورية اجتماعية مكتسبة من البيئة والمجتمع اللذين يعيش فيهما . وبهذه الصورة ينفذ الى قلوب من يعاصرهم وينال إعجابهم .

والامر الثاني يطبع في نفسه صورة فردية لشخصه تطابق مافطر عليه من النزعات والميول والاكياس من الشعراء من يخفون من أجزاء هذه الصورة ما يتسخطه المجتمع

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ويظهرون منها ماتطرب اليه نفوسهم ونفوس من يضاهئونهم ٠

وشوقي جد كيس بزيع : أظهر في معاني شعره كل صورته الكسبية الاجتماعية فأعجب الأديب والعالم والفيلسوف والمؤرخ والسياسي والمشترع والمفتن والمسلم واليهودي والنصراني ولم يظهر في معاني شعره الا بعض أجزاء من صورته الفردية (الفطرية) فأعجب نفسه ومن يشاركه في الهوى : هتف بالخمر فاستقصى ، وتغزل بالجميل فاستهوى الانفس ، ووصف المراقص فاستمال القلوب ، فاستدل المجددون في الشعر بهذا على انه يحب الحياة ومادروا انها صورة المرء الفطرية الحيوانية يظهرها التبذل ويضمرها التزمت والتدين والا فمن منا لا يحب الحياة انما تختلف في وجوه نشدها :

أرى كلنا يبغي الحياة لنفسه حريصاً عليها مستهاماً بها صبا
فحب الجبان النفس أورده التقا وحب الشجاع النفس اورده الحربا

ومن معرفتنا بان كل امرئ يعيش طبيعة بصورة لنفسه وصورة للمجتمع نعرف خطأ من يقول ان شوقياً غريب الأطوار فينا هو يشيد بالتبزع في وصف الخمر والتمتع باللذائذ والتولع بالملاهي اذا به يحث على التفاني في نصرة الاسلام والتنافس في نشر الفضيلة والإيثار على النفس ٠ نسي هذا القائل تأثير الغرائز الفطرية لكل شخص كما نسي ان المجتمع الذي يعيش فيه شوقي هو الغريب الاطوار السريع التقلب فهو يعايشه في اموره العامة بصورته الاجتماعية المكتسبة منه ويراجع لذاته بصورته الفردية ٠

هذا وليس عجباً ان يفوق شوقي شعراء زمانه ومن قبلهم من بعد القرن الرابع باكثاره من المعاني المبتكرة فلا نكاد نقرأ له قصيدة الا متضمنة معنى أو أكثر من معانيه المبتكرة أو المولدة توليداً بديعاً بحيث يتألف من مجموعها ثروة تضاف الى ثروة الأدب فتزيده عزازة وتمكينا ٠

« مسلك شعره في اللفظ والاسلوب »

يضيق بنا المقام الليلة عن وصف شعره في لفظه وأسلوبه مفصلاً تفصيلاً وكل مايمكن ان نقوله انه كان في صباه رقيقاً سهلاً قليل اللفظ الغريب ثم صار في كهولته يرق في الغزليات والخمريات وأوصاف الملاهي ويفخم ويجزل ويغرب ويغمض في الجديات

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وعندما يعارض شاعراً عظيماً او يكتب الى عالم كبير أو مملك خطير وهذا الغريب أحيا منه شوقي اكثر من الألف كلمة زادت الأدب فراهة ومجادة . وليس معنى ماقلت في هذه الليلة ان شوقياً رزق الكمال في شعره كما رزق السعادة ، فالشاعر الكامل لم يسمح به الزمان بعد ولعل له من العيوب الفنية والأخطاء النحوية اللغوية ما يستنفد عشرات الصحائف ومبلغ القول فيه انه بشر يخطيء ويصيب وانه مكرمة من مكارم الشرق وحسنة من حسنات الأدب العربي . وكفى شوقياً شرفاً وعظمة ان تكون فجيعتنا فيه هي فجيعة للعرب والمسلمين والشرق كافة وان كل قلب فيهم يستشعر الياس من ان يستدير الزمان فيجور لنا بنادرة الفلك وبكر عطارد . فهل تخرج لنا الأرض التي أنبتته والهيأة التي أنجبته مثل شوقي ليس ذلك بعزيز على مفيض العقول وواهب الحياة سبحانه وتعالى .

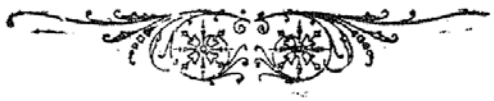

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net